

القدس بين فتح عمر وفتح صلاح الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

لَا أَحْصِي كَمْ تَرَدَّدَ عَلَى سَمْعِي وَثَقُلَ عَلَى نَفْسِي هَذَا الدَّعَاءُ غَيْرَ الْمَأْثُورِ: (اللَّهُمَّ فَتَحْ صِلَاحَ الْمَدِينِ) فِي آخِرِ خُطْبَةِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَعَجِبْتُ لِمَاذَا يَشْتَرَطُ الْخُطْبَاءُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ فَتَحَ الْقُدْسِ الْقَادِمَ عَلَى مِنْهَاجِ صِلَاحِ الْمَدِينِ رَحِمَهُ اللَّهُ لَأَعْلَى مِنْهَاجِ الْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ الْمَهْدِيِّ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنْ جَازَ الْمَاشْتَرَاطُ. كَانَتْ غَايَةَ الْمَجَاهِدِ وَالْفَتْحِ عَلَى مِنْهَاجِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا»، وَحَتَّى لَأَتَكُونَ فَتْنَةً وَيَكُونَ الْمَدِينِ كَلِمَةً لَهَا [الدُّنْيَا: 39].

أَمَّا الْجِهَادُ وَالْفَتْحُ بَعْدَ الْقُرُونِ الْمَفْضُوتَةِ فَحَرِيٌّ أَنْ يَشُوبَهُ - فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِ وَأَحْسَنِهَا - قَصْدُ التَّوَسُّعِ وَالْمَكْسَبِ الدُّنْيَوِيِّ مِنَ الْأَرْضِ وَالْمَالِ، إِنْ لَمْ يَكُنِ الْحَقْدُ أَوْ التَّعَصُّبُ الْقَوْمِيَّ أَوْ الْمَانْتِصَارَ لِذَاتِ الْفَاتِحِ كَمَا يَقُولُ الرَّوَاةُ عَنِ الْفَتْحِ الْمَعْتَصِمِ

- عَفَا اللَّهُ عَنْهُ - (عَمَّوْرِيَّةً) وَهُوَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى الْآخِرُ لِلْجِهَادِيِّينَ الْيَوْمِ.

وَصِلَاحُ الْمَدِينِ رَحِمَهُ اللَّهُ - وَإِنْ أَخَذَ شَيْئاً مِنَ الْعِلْمِ عَلَى مِثْلِ أَبِي طَاهِرِ الْمَسَلِّ فِي الصُّوفِيَّةِ! عَلَى نَهْجِ عَصْرِهِ: أَشْعَرِي الْمَعْتَقِدِ شَافِعِي الْمَذْهَبِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صُوفِي الطَّرِيقَةِ - إِنْ مَا كَانَ عَسْكَرِيًّا أَكْثَرَ مِنْهُ عَالِماً أَوْ دَاعِيًّا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، وَقَدْ نَفَعَ اللَّهُ بِهِ فِي اسْتِعَادَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ وَلَكِنْ لَمْ تَظْهَرْ لَهُ هِمَّةٌ أَوْ مَحَاوِلَةٌ لِإِعَادَةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمَدِينِ الْحَقِّ فِي الْبِلَادِ الَّتِي حَكَمَهَا حَكَمًا مُطْلَقًا قَبْلَ أَوْ بَعْدَ مَوْتِ آخِرِ وِلَايَةِ الْفَاطِمِيِّينَ: الْعَاظِدِ الَّذِي مَنَحَهُ الْمُوَزَارَةَ وَعَيَّنَهُ قَائِدًا لِحِيْشِهِ وَلِقُبِهِ (الْمَلِكِ الْمُنَاصِرِ)، وَقَدْ وَفَى لَهُ صِلَاحُ الْمَدِينِ فَلَمْ يَصْرِفْ عَنْهُ الدَّعَاءَ فِي خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ (رَمَزَ الْوِلَايَةَ الْمَبْتَدِعِ) إِلَى أَحَدِ بَقَايَا الْعَبَّاسِيِّينَ إِمَّا فِي آخِرِ مَرَضِ مَوْتِهِ بَعْدَ أَنْ فَقَدَ الْإِحَاطَةَ بِمَا أَحْدَثَهُ صِلَاحُ الْمَدِينِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَلَمْ يَظْهَرْ صِلَاحُ الْمَدِينِ إِنْكَارًا أَوْ تَغْيِيرًا لِشَيْءٍ مِنْ مَوْبِقَاتِ الْفَاطِمِيِّينَ وَأَشْنَعِهَا وَثْنِيَّةُ الْمَقَامَاتِ وَالْمَشَاهِدِ وَالْمِزَارَاتِ (وَأَشْهَرُهَا وَثْنُ الْحُسَيْنِ فِي الْقَاهِرَةِ)، وَقَدْ بَنَاهُ الْفَاطِمِيُّونَ قَبْلَ رُبْعِ قَرْنٍ مِنْ دُخُولِ صِلَاحِ الْمَدِينِ فِي وِلَايَتِهِمْ ثُمَّ وَرَاثَتِهِمْ مَلِكُهُمْ.

وَلَمْ يُظْهَرْ صِلَاحُ الْمَدِينِ تَجَاوُزَ اللَّهِ عَنْهُ وَإِعْنَهُ إِنْكَارًا أَوْ تَغْيِيرًا لِشَيْءٍ مِنْ مَنَكَرَاتِ الْفَاطِمِيِّينَ بَعْدَ اسْتِقْدَالِهِ بِالْوِلَايَةِ، إِمَّا مَا يَفْعَلُهُ أَيُّ صُوفِيٍّ أَوْ قَبُورِيٍّ أَوْ مَبْتَدِعٍ مِمَّنْ يَنْتَمِي إِلَى الْمَسْنُونَةِ: تَغْيِيرَ مَذْهَبِ الْمَدْرَاسَةِ فِي الْأَزْهَرِ إِلَى مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي أَحْكَامِ الْعِبَادَاتِ وَالْمَعَامَلَاتِ (وَلِمَا يَزَالُ الْيَوْمَ كَمَا تَرَكَهُ) وَإِسْقَاطَ جُمْلَةٍ: (حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ) مِنْ أَلْفَاظِ الْمَآذِنِ.

بَلْ ذَكَرَ السِّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَارِيخِ الْخُلَفَاءِ، أَنَّ صِلَاحَ الْمَدِينِ هُوَ الَّذِي بَنَى تَرْبَةَ إِبْرَاهِيمَ/ وَثْنِ الشَّافِعِيِّ فِي مِصْرَ، وَيُذَكِّرُ عَنْهُ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي بَنَى ضَرْيَحَ [وَثْنِ] الرَّاعِي فِي فِلَسْطِينَ، وَيُعْتَدِرُ لَهُ مِنْ حَيْثُ سَنَّ الْمِظْنَ بِهِ بِأَنَّهُ بَنَاهُ مَخْبَأً لِلسَّلَاحِ أَثْنَاءَ قِتَالِ الصَّلِيبِيِّينَ، وَلَكِنْ هَلْ يَجُوزُ أَنْ يُقَاتَلَ الصَّلِيبِيِّينَ بِوَسِيلَةِ وَثْنِيَّةٍ؟ وَيُذَكِّرُ عَنْهُ أَنَّهُ تَجَاوُزَ اللَّهِ عَنْهُ وَإِعْنَهُ أَحْدَثَ بِدَعْوَتِي إِضَافَةَ جُمْلَةِ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَلْفَاظِ الْمَآذِنِ، وَإِضَافَةَ الْمَابِتْهَالِ قَبْلَ أَذَانِ الْمُضْجِرِ لَيْلَتِي الْإِثْنَيْنِ وَالْجُمُعَةِ، وَلَمْ يَتَحَّ لِي التَّثَبُّتُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ إِبْقَاءَهُ وَثْنِ الْحُسَيْنِ وَغَيْرِهِ، وَبِنَاءَهُ وَثْنِ الشَّافِعِيِّ شَرُّ مِنْهُ.

إِذَنْ.. لِمَاذَا يَخْتَارُ الْحَزْبِيُّونَ وَالْحَرَكِيُّونَ وَالْفِكْرِيُّونَ وَالْمَوْصُوفِيُّونَ بِالْإِسْلَامِيِّينَ مُثَلِّهِمُ الْعَلِيَا مِنْ بَيْنِ مَنْ عُرِفَ بِالْمُقَاتَلِ وَالْفَتْحِ دُونَ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ عَلَى

مِنْهَاجِ النَّبُوَّةِ، مِثْلَ الْمَعْتَصِمِ وَصِلَاحِ الْمَدِينِ تَجَاوُزَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَلِمَا يَخْتَارُونَ مِنْ بَيْنِ الدَّعَاةِ الْمَجَاهِدِيِّينَ، عَلَى مِنْهَاجِ النَّبُوَّةِ مِثْلَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ثُمَّ ابْنِ تَيْمِيَّةَ

وَابْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا؟

لَأَنْتَهُمْ هَدَاهُمُ اللَّهُ إِنَّمَا يَقْتَدُونَ بِالْأَقْرَبِ إِلَى مَنَازِلِهِمْ الْمَبْتَدِعَةِ الَّتِي تَقْدِمُ قِتَالِ الْمَنَاسِ عَلَى دَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ كَمَا يَقُولُ الْمَثَلُ الْعَامِيُّ: «مَطْوَعُ الْحَنْشَلِ مِنْهُمْ» أَيُّ: يَوْمٌ قَطَاعُ الطَّرِيقِ أَحَدَهُمْ، وَدَعْوَى الْجِهَادِ الْخِيَالِيِّ

تجذب الناس والمتبرعات أكثر من الدعوة إلى منهج النبوة.

أما منهج النبوة في معاملة المخالف (ولو كان كتابياً أو وثيقاً) فإن أساسه: الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة وإلى السنة والنهي عن وثنية المقامات والمشاهد والمزارات وما دون ذلك من البدع (بالحكمة والموعظة الحسنات) [النحل: 125]، وقد تدعو (أو لا تدعو) الحاجة في المرحلة الأخيرة (الأولى ولما الثانية ولما الثالثة) إلى القتال لدرء الفتنة عن الإسلام والمسلمين (حتى لا تكون فتنة ويكفون الدين لله) [البقرة: 193] لا للحقد ولما للحسد ولما للغضب، ولما لإظهار المشجاعة وتحصيل الشهادة المزعومة، ولما للحمية الجاهلية قومية عربية أو أعجمية أو ترابية.

ولقد بلغ أمر التعصب القومي العربي والتعلق بالوهم والخيال بكاتب أردني إلى ادعاء أن صلاح الدين عربي (ولو جاء أهله من أذربيجان ولو كان أجداده من الأكراد)، بل بلغ أمر التعصب القومي الموصوف بالإسلامي ببعض الإسلاميين في الأردن إلى بناء صنم لصلاح الدين (فوق صنم لفرسه) في المكركك نكايمة في النصارى، (مرة أخرى: محاربة أهل الكتاب بالوثنية في أبرز مظاهرها: الصنم)، وقد وفق الله الملك حسين تجاوز الله عنه إلى قطع هذا الطريق من شر طرق الشيطان؛ فأمر بهدم تمثال بني له أمام مجلس الوزراء؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر علياً رضي الله عنه أن لا يدع صورة (أو تمثالاً) إلا طمسها (وأن لا يدع قبراً موشراً إلا سواه بالأرض؛ فأوصى رحمه الله بعدم البناء على قبره)؛ فسن في الإسلام سنة له أجريها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ولو لم أن الله وفقه لذلك، فلربما امتلأت الأردن بالتماثيل بسبب حماس المحركيين الأهوج. وقد ذوه ابن باز رحمه الله بصنيع الملك (ضمن فتاواه (9/448)، ط: 3).

ودعوى أن صلاح الدين عربي، إنما هي حلقة جديدة في سلسلة تباهي العرب اليوم بما ليس لهم وتكاثرهم بما لم يعطوا، وقولهم بما لم يفعلوا؛ كمثل دعوى بعضهم أنهم أسسوا الأدب الإنكليزي لأن شكسبير عربي اسم الشيخ زبير، وأنهم أسسوا الحضارة الغربية بفكر أمثال ابن سينا في الفلسفة والطب والبيريوني في الفلسفة والرياضيات والخوارزمي في الرياضيات والفلك، وأنهم أسسوا فن الطيران بأسطورة عباس بن فرناس، وجُلُّ من تحقق له إنجاز فكري أو فني أو مهني سواء بالترجمة عن فكر اليونانيين والهنود، أو بالإضافة إليه، فهم من نسل أعجمي وأرض أعجمية، وقد انصرفوا عن العلم الشرعي إلى هذا الفكر برغم انتمائهم إلى الإسلام وليس بسببه، بل لتضعف التزامهم بمنهج النبوة في الدين الحق والدعوة إليه.

وقد أرسل الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بلسان قومه ليتفقوا في الدين وليدعوا إليه على بصيرة، والانسراف إلى الفكر (إسلامي أو يوناني أو هندي) يشغل عن هذه الغاية الربانية العظيمة ويقطع الطريق عليها ويعوق عنها، ولذلك لم يعرفه ولم يسع إلى معرفته خيار المسلمين وقدوتهم في القرون الخيرة يوم كانوا هم القادة وهم السادة في أرض العرب والعجم، بل كان أكبر همهم العلم بشرع الله والعمل به وتبليغه، فاستخلفهم الله في الأرض بعد أن فتحوها على نهج أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، لا على نهج المعتصم وصلاح الدين تجاوز الله عنهما، ولما على نهج الفتوحات العثمانية باسم الإسلام وأعمال الشرك والابتداع والتعصب القومي الجاهلي والمظلم الديني والديوي.

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، ولعل الله أن يهدينا جميعاً لأقرب من هذا رشداً. □

1427هـ. كنبه/ سعد بن عبد الرحمن الحصين - عفا الله عنه - تعاونوا على البر والتقوى وتحذيراً من الإثم والمعدوان